أمهات المؤمنين

نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

جويرية

بنت الحارث

منشورات
دار التوفيق
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
١٩٨٠

دار التوفيق للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - ص.ب ٣٠٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

ـ ﴿وَلله خَزَائِنُ السَّموات والأرْض ولَـكِنَّ المنافقـينَ لا يَفْقَهُونَ ، يَقُولُونَ : لئِنْ رَجَعْنا إلى المدينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَـزُّ منْها الأَذَلَّ . وَلله العِزّةُ ولِرَسُولِهِ وللمؤمنين ولَكِنّ المُنافقينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ ـ

صدق الله العظيم

وقالت عائشة عن جويرية بنتِ الحارثِ رضي الله عنها :

((لا أَعْلَمُ امرأةً أعظم بركة على قومها منها)) .

نَسَبُها

هي : جُوَيْرِيةُ بنْتُ الحارثِ بن أبي ضِرار بن حبيب بن عائِذٍ بن مالِكٍ بن جُذَيمة ابن المصْطَلَق .

وُلِدَت قبل الهجرة إلى المدينة ؛ ونشأت في قَومها « بني المصطلق » ، ـ اليهود ـ الذين كانوا يقيمون على طريقِ المدينةِ ؛ وهُم أَحَدُ فروعِ « خُزاعة » .

وكان والدها « الحارثُ بن أبي ضرار » سيّد قومه وزعيم عشيرتِهِ ، فَنَشَأَت نَشْأَةَ السّادة في حِجْرِ أَبَويهْا ؛ ترتع في نعيم العيْش ، وسؤدد الجاه والزعامة .

وحين بَلَغَتْ مبلغ الشباب ، واكتملت أنوثتها، كثُر خُطّابها والراغبون في الزواج منها .

فاختار لها والدُها فارساً من فرسان «بنـي صفـوان » ؛ ٱشتهر بالمغامرة والإقدام هو « مُسافع بن صفوان » ؛ وزوّجَهُ إيّاها ؛ وأقام المآدب والأفراح احتفالاً بزواج أجمل وأشرف بنات « بني المصطلق » إلى أشجع فرسانهم وأعظم أبطالهم ؛ وتحدَّث النَّاس جميعاً عن روعةِ تلكَ الاحتفالات وبهائِها .

وكان «الحارث بن أبي ضرار» من أكثر اليهود وأشدهم عداوة للإسلام والمسلمين ؛ وأكثرهم حقداً على رسـولِ الله ﴿ ﷺ ﴾ ودَعْوتِهِ ؛

وبعدَ أن أَخْزى الله المشركين « يَوْم الخندق » ؛ وأنـزل بيهود « بني قريظة » قصاصه العادل ، وحكمه الحق ؛ أخذ « الحـارث بن أبـي ضرار» والـد « جُويريـة » بتجميع الجموع ، وتأليب الأعداء ولـمّ شمل الحاقدين والناقمـينَ على النبيِّ ﴿ ﷺ ﴾ ، لينتقم من المسلمـين أَخْـذاً بثـأرِ الأحزاب وثأر « بني قريظة » .

فبلغت أنباءُ التجمّع رسُولَ الله ﴿ﷺ﴾ فأرسل يستطلع الأمر فجاءته الأنباءُ تؤكد صدق ما سمع ؛ ورأى أن السرعة خير سلاح يقضي على المؤامرةِ في مهدِهَا ؛ وأنّ خيرَ وسائلِ الدفاع هو الهجوم والمباغتة .

ونادى في النّاس : إلى الجهاد .

فلبّى الدّعوة جُند الله ؛ رجالاً وركباناً ، ذوداً عن دينهم وحفاظاً على شريعتِهِم ودِفاعاً عن نَبِيِّهم .

وسار الجيش يتقدّمه رسُول الله ﴿ﷺ﴾ حتى أصبح في مكان يُدعى « المُرَيْسِيع » فيه بئر ماءٍ ، فأقام هناك ، وحال دون تزويد « بني المصطلق » بالماء .

وتحصّن اليهودُ وراء أسوارهم ؛ ولكن أمَدَ الحصار لم يمتد إذ نفدت مُؤَنُ اليهودِ من الطعام والشراب فخرجوا من حصونِهِمْ وقد استبدّ بهم الجوع والعَطش ، وكانت معركةٌ فاصلة قُضِي فيها على أعداء الله ، وامتلأتْ الساحة بجثثِ القَتْلى الذين كان من بينهم زوج «جُويرية » « مسافع بن صَفْوان » .

وولى الكثير من اليهود الأدْبار ، وخلّفوا وراءهم الغنائِم والأَسْلاب والذراري والنّساء ؛ وكانت « جُويْرية » في عِداد الأسْرى .

بعدَ أن انتهت المعركةُ ضربَ المسلمون معسكرهم للراحَةِ في سهلٍ فسيحٍ ، حيث تمَّ جمع الفيء لتوزيعهِ على المنتصرين .

في ذلك الوقت كاد رجلان من المسلمين أن يقتتلا على الماء ، أيهما له السَّبْق على صاحِبِهِ ، أحدهما من الخزرجِ وثانيهما من أتباعِ « عمر بن الخطّاب » ـ رضي الله عنهُ ـ ؛ وانتصر لكل واحدٍ شيعته بعد ان نادى الأنصاريُّ أصحابه من الأنصارِ ، والمهاجريُّ أصحابَهُ من المهاجرين ؛ وقال رأسُ المنافقين «عبدالله بن أُبيّ بن سلول » :

ـ لئن رجعنا إلى المدينةِ ليخْرجَنّ الأعزُّ منها الأَذَلّ وهو يعني المهاجرين الذين جاؤوا إلى المدينةِ أذلَّةً ضعفاء ؛

فوصلت انباءُ الفتنةِ إلى مسامعِ رَسُولِ الله ﴿ﷺ﴾ ، فأمر المسلمين جميعاً بالرّحيل الفوريّ دون إبطاء وذلك في ساعةٍ ما توقعوها ، ووقتٍ لم يتعوّد رسُول الله أن يأمر أصحابه بالرحيل فيه .

وتلفتوا حواليهم في دَهْشَةَ يتساءَلون ؛ ولم يدروا أن رسُول الله ﴿ﷺ﴾ قد أراد أن يحسمَ الخطرَ بسرعة وأن يدرأ شراً ترددت أصداؤه هنا وهناك .

وكانت حكمةً بالغة من رسُول الله ﴿ﷺ﴾.

وأسرعَ المسلمون إلى رواحلهم يعدّونها بسرعةٍ ، ومعهم ما حملوا من غنائم بني « المصطلق » وأسراهم وسَبْيهم ومن ضمنهم « جُوَيْرية بنت الحارث » قائد الحي المهزوم وزعيمه .

وبلَغ المسلمونَ المدينة تسبقهم أنباء النّصر والظفر ؛ وحينما استقرّ بهم المقام تحلّقوا حول رسُول الله ﴿ﷺ﴾ لينال كلُ منهم نصيبه وحصّته بحسب درجته في الجهاد .

ووقعتْ « جويرية بنت الحارث » في نصيب « ثابت بن قيس » أحد صحابة رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ .

وبينما النبيّ ﴿ ﷺ ﴾ في مجلسه دخلت عليه « جُوَيْرية » تقول في صوتٍ فيه نبرةٌ باكيةٌ مستعطفةٌ :

ـ يا رسُول الله !!! أنا « جُويْرية بنت الحارث بن أبي ضرار » سيّد « بني المصطلق » قد أصابني من البلاء ما قد علمتَ ، فوقعت من نصيب « ثابت بن قيس » فكاتبني على تسع أواقٍ من الذهب فجئتُ أستعينك لتدفعها عني وتَرُدَّ إليَّ حريتي ...

ثم سكتت ...

وسكت رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ قليلاً ؛ ومرت لحظات من التفكير والتدبير... استعرض خلالها الموقف بسرعةٍ ؛

إن أمامه الآن سيدة « بني المصطلق »، وبنت سيّدهم الذي جمع عليه الجموع ودعا إلى قتاله ورسمَ خطّة القضاء عليه ؛ ولقد نصر الله نبيَّه وأظفره على أعدائه ؛ ووجد عليه

السلام أن الفرصة مؤاتية لينتصر على القَوم مرةً أخرى في السِّلم واستمالتهم إلى الإسلام !!!

فَرَفَعَ رسُول الله ﴿ﷺ﴾ رأسَهُ ونظر إلى الواقفة أمامه تستنجد به ثم قال لها :

ـ هل لك في خير مما طلبت ؟؟

فقالت « جُويرية » :

ـ وما هو يا رسول الله ؟

فقال :

ـ أدفع عنك كتابتك ـ أي ما فرضه عليك « ثابت بن قيس » ـ وأتَزَوَّجُكِ ...

فقالت « جُوَيْرية » دون تردُّدٍ :

ـ نعم .

ولم تكَدْ تمضي بضع لحظاتٍ على إعلان قبول جُوَيْرية الزواج من رسُول الله ﴿ﷺ﴾ حتى قال جميع المسلمين الذين كان في أيديهم السَّبْي من « بني المصطلق » :

ـ أصهارُ رسُول الله ﴿ﷺ﴾ يُسْترقّون ؟؟ !!

وأعتق كل منهُم سبيّته وفكّ قَيْدَ أسيره ، وعادت الحرية إلى الجميع .

وهكذا حرَّرَ زواجُ النبيّ ﴿ﷺ﴾ من « جُويْرية » رقاب أهْلِها وعشيرتها، ورد إليهم حقوقاً كادت تفقدهم إياها أهوال الحروب والمؤامرات ؛ فقالت « عائشة » أم المؤمنين رضي الله عنها في حق « جُويْرية » :

ـ لا اعلم امرأة أعظم بركة على قومها من « جويرية بنت الحارث » .

ودخلت « جويرية » رضي الله عنها بيت النبوّة مُسْلمة تحفظ حقّ الزَّوج ، وتقدّر مسؤولية الزوجية ؛ وترعى حقوق ربّ البيْت ؛ تحرص على كرامته ؛ وتحترم شخصيته ؛ وكانت قد بلغت العشرين ربيعاً من عمرها .

وكانت بعضُ نساء النبيّ ﴿ﷺ﴾ قد أصبْن بالغَيرة من وقائِع زواج « جُوَيْرية » ، وما رافق تلك الوقائع مِنْ

أغراضٍ وأهـداف ؛ كما كان لجمالها التـي امتـازت به ، وتحدّثت عَنْه كُتُبُ السّيرة والتاريخ الأَثر البارز في الغَـيرة الظاهرة التي حفزتْهُنّ إلى الغَمْز واللّمْز.

وسمعت « جُوَيْرية » ببعض الهمسات تتناقلها الألسنة فقالت لرسُول الله ﴿ﷺ﴾ يوماً :

ـ يا رسـول الله إنّ نسـاءك يفخـرن عليّ ويقُلْنَ : لم يتزوجك رسُولُ الله ...

(أي أن إقامتها في بيتهِ بمِلْك اليمين ؛ فهي أَمَتُه ورقيقته)

فقال عليه السَّلام مستنكراً مِنها هذا التصوُّر ومن نسائه هذا التقوُّل :

ـ كيف !!! أَلَـمْ أعَظِّم صداقك ؟ أَلَـمْ أعتق أربعين من قومك ؟؟

الفَقِيهُ الرّاوِيَة

لقد أسلمت « جُوَيرية » وحَسُنَ إسلامها ؛ ثم تفقّهت في دين الله تعالى ؛ وَوَعَت الكثير عن رسُول الله ﴿ﷺ﴾ مما يُعْتَبَر تشريعاً وحُكْماً ، فأضافت بذلك إلى الثروة العلمية ذخيرة جديدة ..

حَدّثَتْ عن رسُول الله ﴿ﷺ﴾ فقالت :

لقد صلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ عندي الفجر ثم خرج وجلس في المسجد حتى ارتفع الضحى ، ثم عادَ إليّ وأنا لا أزال في مُصَلاّي فقلت :

ـ ما زلتُ بعدك يا رسُول الله دائبة .

فقال عليه السلام :

ـ لقد قُلْتُ بعدك كلماتٍ لَوْ وُزِنَّ لرجَحْنَ بما قُلْتِ ؛

قُلْتُ : سبحان الله عَدَد خَلْقِهِ ؛ سبحان الله رضي نفسه ،

سبحان الله زِنَةَ عَرْشِهِ ، سبحان الله مدادَ كلماته .

وحدَّثَتْ أيضاً فقالت :

دخل عليَّ رسُول الله ﴿ﷺ﴾ يوم جمعةٍ وأنا صائمة ؛ فقال لي :

ـ أَصمتِ أمْس ؟

فقلتُ :

ـ لا ...

فقال :

ـ أتريدين أن تصومي غداً ؟؟

قلـتُ :

ـ لا ..

قال :

إذاً أفْطري .

يَوم خَيبَر

ولقد كانَ من عادَةِ رسُول الله ﴿ﷺ﴾ أن يجري قرعةً بين نسائهِ عندما كان يريد الخروج في غزوةٍ ، أيُّهُنَّ تخرج معه ؛ وكانـت القُرعَـةُ من نصيب « جُوَيْرية » يوم خيبـر فخَرَجت معه ؛ وكانت نِعم الرفيقة الرقيقة ؛ وكتب الله تعالى يومها النّصر للمسلمين ؛ فأعطاهـا رسـول الله ﴿ﷺ﴾ نصيبها ثمانين وسْقاً من تمْرٍ وعشرين وسْقاً من قمْح .

الأمينة على العهد

لقد أوصى رسُول الله ﴿ﷺ﴾ إلى نسائـهِ « أمهـات المؤمنين » وصايا حفظتها « جُوَيْرية » حق الحفظ ؛

فبعد أن لحق ـ عليه السلام ـ بالرفيق الأعلى ؛ لم يُؤْثر عنها أنها تورّطت في موقفٍ أو كلمة تُعْتَبَر مخالفةً لعهد النبيّ ﴿ﷺ﴾ الذي عَهِدَه إليهنّ لهذا رعى المسلمون جميعـاً خلفاء وصحابة حق «أم المؤمنين » «جُوَيرية بنت الحارث » ؛ وقدّروا مَنْزلتها ومقامها ؛ وحفظوا مركزها وفاءً منهم لذكرى نبيّهم «عليه السلام » .

الوفَـــاة

ولما كانَـتِ السنـة الخمسـون من الهجـرة وفي خلافـة « معاوية بن أبي سفيان » دبّ الوهَنُ إلى جسم « جُوَيْرِية » رضي الله عنها ؛ وأزفت ساعة رحيلها عن الدنيا ، ولحوقها برسُول الله ﴿ ﷺ ﴾ .

وأدركتْها الوفاة في شهرِ ربيع الأول ؛ وكانت قد بلغَتْ من العمر خمساً وستين سنـة ؛ فصلّى عليهـا والي المدينـة « مروان بن الحكم » ؛ ودفنَت في البقيع .

رضي الله عن أم المؤمنين «جُـوَيرية بنـت الحـارث » ؛ وبَوّأها من الجنة مقاماً رفيعاً ؛ وألحقنا بها في الصالحين .